شرح كتاب حلية طالب العلم

الشيخ محمد العويد – رحمه الله –

الفصل الأول للعام ١٤٣٨

معهد العلوم الشرعية العالمي
تابع لملتقى طالبات العلم www.t-elm.net

الدرس الأول

أولاً: آداب الطالب في نفسه

قال المؤلف رحمه الله:

١- العلم عبادة:

اعلم أيها الطالب المجد أن العلم عبادة؛ فلابد من إخلاص النية لله عز وجل لقوله سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات...»، وقال بعض العلماء: «العلم صلاة السر وعبادةُ القلبِ».

الشرح: لا تستقيم العبادة إلا بالعلم، والعبادة بدون علم سبب للوقوع في الأخطاء والتجاوزات، وسبب في نشوء البدع فيها.

والعلم يكسب العابد بصيرة، فيعبد ربه على منهج سليم صحيح خالٍ من الخرافات والبدع، وخالٍ من الشركيات.

وما وقعت البدع والشركيات في مجتمعات المسلمين إلا بسبب غياب العلم وتراكم الجهل، فابتدع الجهال عبادات معتقدين أنها تقربهم إلى الله تعالى، بينما هي تحبط أعمالهم، وتسخط الله عليهم.

والبدع أخطر من المعاصي؛ بل هي أكثر خطراً من كثير من كبائر الذنوب.

وقبول العبادات مرتبط بالإخلاص، فإذا خلت من الإخلاص ردت، وفي الحديث الصحيح: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ» متفق عليه. وكلما زاد الإخلاص كان أحظى للقبول.

قال المؤلف رحمه الله:

فاحذر من كل ما يصيب نيتك في صدق الطلب؛ كحب الظهور والتفوق على الأقران، أو جعل العلم سلمًا للحصول على جاهٍ، أو مالٍ، أو تعظيم، أو سمعة، أو صرف وجوه الناس إليك.

وابذل الجهد في الإخلاص، وكن على خوف شديد من نواقضه؛ فقد قال سفيان الثوري رحمه الله: «ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نيتي».

ومع إخلاص النية فاعمر قلبك بمحبة الله ومحبة رسوله ﷺ؛ وذلك بمتابعته واقتفاء أثره؛ فقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

الشرح: الرياء محبط للأعمال، وهو عدو القبول، والإخلاصُ فيه تجريد للقلب من عوالق التعلق بالدنيا، وقد خاف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من الرياء؛ لأنه محبط للعمل، فقد ثبت عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً " رواه أحمد.

وينبغي لطالب العلم أن ينزه نفسه عن قصد الدنيا في تعلمه، وأن يجعل شعاره في العلم الإخلاص لله تعالى، وأن يجاهد نفسه في ذلك، فما جوهدت النفس بمثل حثها على الإخلاص والتزامه.

محبة الله تعالى ومحبة رسوله من علامات الإيمان، والمحبة الحقيقية بالاتباع، كما قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ).

ومن صفات المؤمنين أنهم أشد حبّاً لله تعالى من حب المشركين لأندادهم كما قال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ }البقرة١٦٥

قال المؤلف رحمه الله:

٢- كن على جادة السلف الصالح:

وهم الصحابة والتابعون وتابعو التابعين فمن بعدهم ممن قفا أثرهم في جميع أمور الدين، وهؤلاء هم أهل السنة والجماعة [١]؛ فكن متميزًا بالتزام آثار رسول الله ﷺ وترك الجدال والمراء والخوض في علم الكلام، وما يجلب الآثام ويصد عن الشرع.

الشرح: الصحابة والتابعون ومن اقتفى أثرهم، هم أهل المنهج السليم والعقيدة الصحيحة؛ لأن منهجهم يتسم بالاتباع للنص الشرعي من الكتاب وصحيح السنة.

والواجب على كل مسلم ومسلمة أن يكونوا متبعين لنصوص الوحي في جميع شؤون حياتهم، فهي سبيل النجاة من الضلال وسبل الشيطان.

والتميز حقيقة هو بالتمسك بالنصوص الشرعية واقتفاء أثرها وتقديمها على كل ما يخالفها.

وترك الجدال وعدم الخوض في علم الكلام من الواجبات لحفظ الدين، وليس أخطر على قلب المسلم من تتبع الجدل والعلوم الفاسدة، وما ضل كثير من المسلمين إلا بسبب انصرافهم إلى علوم الجدل والكلام. فضلوا بتعلمها وأضلوا غيرهم.

قال المؤلف رحمه الله:

٣- الزم خشية الله:

عليك بعمارة ظاهرك وباطنك بخشية الله تعالى؛ محافظًا على شعائر الإسلام، وإظهار السنة ونشرها بالعمل بها والدعوة إليها؛ فكن دالاً على الله بعلمك وسمتك وعملك، واعلم أن أصل العلم خشية الله تعالى- كما قال الإمام أحمد — فالزمها في السر والعلن؛ فإن خير البرية من يخشى الله تعالى، وما يخشاه إلا عالم، والعالم لا يعد عالمًا إلا إذا كان عاملاً، ولا يعمل العالم بعلمه إلا إذا لزمته خشية الله، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل».

الشرح:

---

(1) منهاج السنة (١٥/١٥٨).

الخشية من خصائص العلماء ومن ينتظم في مسالك العلم، وقد قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ }فاطر٢٨. فهم أهل الخشية الحقيقية؛ لأنهم أعرف بالله تعالى.

الفرق بين الخوف والخشية، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ }الرعد٢١.

والآية تدل على أن معنى الخشية يختلف عن معنى الخوف، فالخوف سببه التقصير أو الوقوع في الذنب المستوجب للعقاب، وهذا يحصل للمسلم، سواء العالم أو غير العالم.

أما الخشية فسببها الشعور بعظمة الخالق سبحانه وتعالى، وهي في العلماء أكثر من غيرهم؛ لأنهم أعرف بالله وما له سبحانه من أسماء وصفات.

أهمية العمل بالعلم: عاتب الله تعالى عباده المؤمنين بمخالفة قولهم لعملهم، فقال سبحانه: {١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ{٢} كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ{٣}. سورة الصف. وهو عتاب وتنبيه لهم مقترناً ببيان كونه مقتاً كبيراً. وهو أسلوب تخويف منه سبحانه وتعالى، لمن يخالف قوله فعله.

والعمل ثمرة العلم، وهو مما سوف يسأل عنه العبد يوم القيامة؛ كما ثبت عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ. رواه الترمذي وغيره وهو صحيح.

وأما من يخالف عملُه علمَه، فقد خسر خسراناً عظيماً، وهو متوعد يوم القيامة بالعذاب الشديد، وقد ثبت عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ قِيلَ لِأُسَامَةَ لَوْ أَتَيْتَ فُلاَنًا فَكَلَّمْتَهُ، قَالَ: إِنَّكُمْ لَتُرَوْنَ أَنِّي لاَ أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ، إِنِّي أُكَلِّمُهُ فِي السِّرِّ دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا لاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ، وَلاَ أَقُولُ لِرَجُلٍ أَنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ، بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا: وَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ: قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: "يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا

بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ" متفق عليه.

الدعوة إلى الله تعالى: من ثمرات العلم، وهو طريق الأنبياء ومن اقتفى أثرهم، أنهم يدعون إلى الله تعالى على علم وبصيرة، قال جل وعز: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}يوسف١٠٨.

وزاد الداعية إلى الله العلمُ النافع من أدلة الكتاب والسنة، وهي التي أمر الدعاة أن يبلغوها، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رواه البخاري.

قال المؤلف رحمه الله:

٤- دوام المراقبة:

تحل بدوام المراقبة لله تعالى في سرّك وعلانيتك، وسر إلى ربك بين الخوف والرجاء، وأقبل عليه بكليتك، واملأ قلبك بمحبته ولسانك بذكره واستبشر بأحكامه وحكمه سبحانه.

الشرح:

الله تعالى يعلم السر وأخفى، قال سبحانه: {سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}الرعد١٠. وقال جل وعلا: {وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}طه٧.

والمؤمن يعلم يقيناً أن الله تعالى يعلم كل حركاته وسكناته وأقواله وافعاله وما يخطر على باله، فيكون سره كعلانيته لله، وتكون عبادته سواء رآه الناس أم لم يروه.

ومن المستحب الإكثار من عبادة السر لله تعالى، فإنها من علامات الإخلاص لله، ولذا فيستحب الإسرار بالعبادات كصلاة النافلة والصدقة وصيام التطوع والذكر وغيرها من العبادات.

وأما المنافق فإنه لا يعظم الله تعالى ولذا فإنه يظهر عبادته للناس كي يمدحوه ويثنوا عليه، أما إذا كان في الخفاء فإنه لا يعبد الله تعالى، بل ربما خطط في الخفاء لهدم دين الإسلام.

والمرائي مشابه للمنافق؛ لأنه يريد بعمله الناس.

والمؤمن حاله بين الخوف والرجاء، فهو يرجو الله تعالى ويخاف عقابه، وليس ذلك إلا للمؤمن، فيأتمر بأوامر الله راجياً قبولها، ويترك المنهيات خائفاً على نفسه من عذاب الله.

وكلما تأمل المؤمن رحمة الله وغضبه كان ذلك أدعى للاتباع وترك المحرمات، ويتم ذلك بمعرفة نصوص الشرع التي تتحدث عن الوعد والعيد.

فحري بطالبة العلم أن تتعرف على هذه النصوص وتجعلها نصب عينيها، ولو حفظت منها ولو شيئاً يسيراً فهو أمر حسن.

قال المؤلف رحمه الله:

٥- خفض الجناح ونبذ الخيلاء والكبرياء:

إياك والخيلاء؛ وهي الإعجاب بالنفس مع إظهار ذلك بالبدن؛ فإنه نفاق وكبرياء، واحذر داء الجبابرة؛ الكبر: وهو بطر الحق وغمط الناس، وهو مع الحرص والحسد أول ذنب عصي الله به؛ فلا تتطاول على معلمك ولا تستنكف عمن يفيدك ممن هو دونك، ولا تقصر في العمل بالعلم؛ فكل ذلك كبر وعنوان حرمان؛ فعليك أن تلتصق بالأرض وأن تهضم نفسك وترغمها عند الاستشراق لكبرياء، أو غطرسة، أو حب ظهور أو عجب؛ فإن هذه آفات العلم القاتلة له، وتحل بآداب النفس؛ من العفاف، والحلم، والصبر، والتواضع للحق ذليلاً له؛ مع الوقار والرزانة، متحملاً ذل التعلم لعزة العلم.

الشرح: من صفات طالبة العلم التواضع؛ لأن العلم لا يورث إلا الصفات الحسنة، ومن تكبر من طلبة العلم فلأنه لم ينتفع بعلمه.

والكبر ليس من صفات المؤمنين، وهو محرم، وقد ثبت عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»

قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» رواه مسلم.

والكبرياء لله تعالى، وقد ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَعْنِي قَالَ اللهُ -: "الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَدْخَلْتُهُ جَهَنَّمَ" رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم.

والتواضع من صفات المؤمنين، وهو من أسباب الرفعة، وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ».

ومن آفات العلم التكبر على الآخرين، يحرم الطالب الفائدة، أما المتواضع فإنه يبحث عن الفائدة أيّاً كان مصدرها، سواء كانت من عالم أو غيره؛ لأن همه الاستفادة.

والتواضع مفتاح لكثير من أخلاق العلم، كالحلم والصبر والتحمل وغيرها مما يحسن بالطالب الاتصاف بها.

قال المؤلف رحمه الله:

٦- القناعة والزهادة:

اقنع بما آتاك الله عز وجل وتحل بالزهد، واعلم أن حقيقته الزهد بالحرام، والكف عن المشتبهات وعن التطلُّع إلى ما في أيدي الناس؛ فكن معتدلاً في معاشك بما لا يشينك، ولا ترد مواطن الذلة والهون.

الشرح: القناعة كنز لا يفنى، ومن رزق القناعة فقد رزق الخير الكثير، والقناعة بالحال إيمان بالقضاء والقدر.

والزهد الحقيقي ليس في التصنع، لكنه في عدم التعلق بالدنيا وجعلها وسيلة للآخرة؛ لأن طالب العلم يعلم يقيناً أن الدنيا دار ممر وليست دار مقام، قال تعالى: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} العنكبوت ٦٤.

ومن عرف القناعة والزهد، علت همته وسمت نفسه عن المراذل، وقنع بما آتاه الله تعالى، وعاش عليه، فإن العيش في الدنيا يحصل بأقل الزاد.

وأما أهل النهم في الدنيا فلن تنتهي رغبتهم، ولن يتوقف سعيهم، وفي الصحيحين عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى ثَالِثًا، وَلاَ يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»

وفرق بين من تكون حصيلته في الدنيا علم ينتفع به، وعمل صالح، وبين من يخرج من الدنيا بأرصدة ضخمة دون أثر من خير.

يوم الإثنين ١٩\ محرم \ ١٤٣٨ هـ الموافق ١٠\١٠\ ٢٠١٦م

معهد العلوم الشرعية